أُسلوبه في الحوار:

لم يقصُر ابن تيميّة نزاعه على الفرق والمذاهب، بل نازع الأعلام بأعيانهم، فلم يترك مخالفاً له إلّا وطعن عليه في مجالسه أو في مؤلّفاته.

كانت معاركه تهدأ في بعض الأحايين، ولكنّها لم تنقطع عنه قطّ، وهي حتّى إذا توقّفت أثارها هو بنفسه من خلال رأي يخالف به ما ألِفَه الناس، أو حدّةٍ يصدم بها أحد مجادليه![1].

ـ أفتى مرّةً في مسألة، وأفتى فقيه آخر بخلافه، فردّ عليه ابن تيميّة قائلاً: مَن قال هذا فهو كالحمار الذي في داره!.

فأنكر عليه حتّى مؤيّدوه هذا الأُسلوب في الجدل، وهذه الحدّة التي تصدم الخُصوم[2].

ـ وكتب بخطّه يصف مجلساً له مع الفقهاء عقده أمير دمشق بأمر من السلطان، فقال: لمّا انتهى كلامي إلى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن المعتزلة، فقلتُ: كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملّي، وهو أوّل اختلاف حدث في الملّة، هل هو كافر أو مؤمن؟ فقال الخوارج: إنّه كافر. وقالت الجماعة: إنّه مؤمن، فقالت طائفة: نقول هو فاسق، لا كافر ولا مؤمن، نـزله منزلة بين المنزلتين،

---

(١) عبدالرحمن الشرقاوي (الفقيه المعذّب): ٣.

(٢) عبدالرحمن الشرقاوي (الفقيه المعذّب): ١٥٢.

واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه فسمّوا معتزلة.

قال: فقال الشيخ الكبير في جلبة وردّ: ليس كما قلت، ولكن أوّل مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام، وسمّي المتكلّمون متكلّمين لأجل تكلّمهم في ذلك.

قال: فغضبتُ عليه وقلتُ: أخطأتَ، وهذا كذب مخالف للإجماع. وقلتُ له: لا أدب ولا فضيلة! لاتأدّبت معي في الخطاب، ولا أصبتَ في الجواب![1].

ـ وكان مُغرىً بسبّ محيي الدين بن عربي، والعفيف التلّمساني وابن سبعين وغيرهم من شيوخ الصوفيّة.

وربّما صرّح بسبّ أبي حامد الغزالي، وكان يقول فيه ساخراً: هو قلاووز الفلاسفة! وهي كلمة تركيّة تعني قائد، يقولها تهكّماً!.

وربّما قالها في الإمام فخر الدين الرازي، وكان كثير الحطّ عليه.

وإذا ذكر علّامة الشيعة الإماميّة ابن المُطهّر الحلّي، قال: ابن المنجّس!.

وإذا ذكر نجم الدين الكاتبي المعروف بدَبيران ـ بفتح الدال ـ صاحب التصانيف البديعة في المنطق، لا يقول إلّا: دُبَيران ـ بضمّ الدال ـ![2].

وهو مع كلّ ذلك يحتجّ على من سبّ فاجراً بعينه، بأنّ ذلك خروج على السُنّة الثابتة عن النبيّ ﷺ! مثل قوله ﷺ: «لَعْنُ المسلم كقَتْلِه».

وقوله ﷺ: «سِبابُ المُسلم فسوق، وقتاله كفر» متّفق عليهما.

---

(١) العقود الدريّة: ٢٣٥.

(٢) ذكر ذلك كلّه الصفدي من سماعه عنه في مجالسه: (الوافي بالوفيات) ٧: ١٨ ـ ١٩.

وقوله ﷺ: «ليس المؤمنُ بالطعّان، ولا اللعّان، ولا الفاحش، ولا البذيء» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن[١].

هذه، وأحاديث أُخرى انتصر بها لا للمسلم البريء، بل للفاجر! فلا يجوز الطعن على (الفاجر) أو النيل منه بكلام بذيء!.

مع اليزيديّة:

أُولئك أتباع الشيخ عديّ بن مسافر الأُموي، الّذين غَلَو فيه وفي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، كتب إليهم الشيخ رسالةً يصحّ وصفها بأنّها رسالة الناصح المشفق، والصديق المحبّ، عرفت بـ(الوصيّة الكبرىٰ) استهلّها بقوله:

من أحمد بن تيميّة إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلىٰ السُنّة والجماعة، والمنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة أبي البركات عديّ بن مسافر الأُمويّ ﷺ، ومن نحا نحوهم، وفّقهم الله لسلوك سبيله، وأعانهم على طاعته وطاعة رسوله ﷺ وجعلهم معتصمين بحبله المتين، مهتدين لصراط الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وجنّبهم طريق أهل الضلال والاعوجاج، الخارجين عمّا بعث الله به رسوله ﷺ من الشرعة والمنهاج، حتّى يكونوا ممّن أعظم الله عليهم المنّة، بمتابعة الكتب والسُنّة، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته[٢].

وفي الأثناء يحذّر من الغلوّ كلّه سواء كان غلوّاً بالشيخ عديّ أو بعليّ بن أبي طالب.

---

(١) ذكر ذلك كلّه مع أحاديث أُخرى في هذا الباب في كتابه (رفع الملام عن الأئمّة الأعلام): ٦٥.

(٢) الوصية الكبرى: ٥.

ثمّ يأتي إلى ذكر يزيد فيعذر اليزيديّة في غلوّهم بأنّ مبدأ ذلك كان من الرافضة الّذين كانوا يسبّونَ يزيد، وإلّا فلم يكن أحد يتكلّم في يزيد بن معاوية، ولا كان الكلام فيه من الدين، فسمع بذلك قوم ممّن كان يتسنّن، فاعتقد أنّ يزيد كان من كبار الصالحين وأئمّة الهدى![1].

فصار الغلاة فيه على طرفي نقيض، هؤلاء يقولون: إنّه كافر زنديق، وإنّه قتل ابن بنت رسول الله ﷺ وقتل الأنصار وأبناءهم بالحرّة ليأخذ بثأر أهل بيته الّذين قُتلوا كفّاراً ـ يعني في بدر وأُحد ـ ويذكرون عنه من الاشتهار بشرب الخمر وإظهار الفواحش أشياء[2].

والحقّ أنّ الشيخ لم يكن موضوعيّاً هنا، فالقول الذي ذكره هنا وعدّه تطرّفاً وغلوّاً هو قول أئمّة المسلمين وصالحيهم، كأئمّة أهل البيت وكبار التابعين، بل والإمام أحمد بن حنبل أيضاً وكافّة أصحاب التاريخ كما سنذكره مبسوطاً في فصل (نهضة الحسين واستشهاده).

قال: وأقوام يعتقدون أنّه كان إماماً عادلاً هادياً مهديّاً، وأنّه كان من الصحابة، أو من أكابر الصحابة، ومن أولياء الله تعالى، وربّما اعتقد بعضهم أنّه من الأنبياء، ويقولون: من وقف في يزيد[3] وقفه الله على نار جهنّم[4].

ثمّ كافح عن يزيد وذبّ عنه كثيراً[5]، كما ذكر بعض حقوق أهل البيت عليهم السلام

---

(١) الوصية الكبرى: ٥١.

(٢) الوصية الكبرى: ٥١.

(٣) أي لم يعتقد بنبوّته.

(٤) الوصية الكبرى: ٥٢.

(٥) يأتي في فصل (نهضة الحسين واستشهاده).

ووجوب رعايتها، كحقّهم في الخمس، والفَيء، ووجوب حبّهم والصلاة عليهم[١].

كما ذكر الكثير من أحكام الدين وفروعه وضروراته، ثمّ اختتم بقوله: نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإيّاكم من الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنّها رسالة في غاية اللين والهدوء مع طائفة من الغلاة، أضافت إلى غلوّها تعطيل الكثير من فرائض الدين وضروراته!.

رسالة تضمّنت شهادته لهم بأنّهم ما زالوا على الإسلام!!.

إنّه خطاب غريب لا يشبه في شيء من نبراته خطاباته للفرق الإسلامية الكبرى، أو علماء المسلمين وصلحائهم، ناهيك عن أهل البدع والضلال والإلحاد!!.

مع النصارى:

كتب في الردّ على النصارى كتاباً وسَمه بـ (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، وهو كتاب كبير، ينتظم في سلسلة الصراع الإسلامي المسيحي على الصعيد الفكري والعقائدي. غير أنّه جاء على خلاف طبع مؤلّفه وعلى غير عادته في مواجهة خصومه، حتّى وصفه بعضهم بأنّه «أهدأ ما كتبه ابن تيميّة في الجدال»[٢].

وقد تناول في هذا الكتاب النصارى عقيدةً وتاريخاً، وكشف عن وجه الخطأ

---

(١) الوصية الكبرى: ٤٩.

(٢) د. محمّد أبو زهرة: (ابن تيميّة: ٥١٩) وعنه أبو الحسن الندوي في (الحافظ ابن تيميّة: ٢٣٢). لكنّ رسالته إلى اليزيدية كانت أهدأ بكثير، وفي تسمية الرسالتين أوّل دليل على هذا.

في تفسيرهم لمصطلحات الشريعة المسيحيّة، كالأب، والابن، وروح القدس.

فرأى أنّ المراد بالأب هو الربّ، والابن هو المصطفى المحبوب، وروح القدس هو ما ينزله الله تعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيّدهم به[١].

ورأى أنّ هذه المعاني هي ظواهر الألفاظ، وأنّ ماذهب إليه النصارى تأويل بعيد لايدلّ عليه اللفظ[٢].

وذكر الأناجيل الأربعة المعروفة وتاريخ تأليفها ودواعي تسرّب التحريف إليها، ثمّ تكلّم حول التحريف الواقع فيها وفي التوراة أيضاً، لكنّ كلامه هنا جاء مجملاً جداً، مفتقراً للتفصيل. فهو يرى أنّ التحريف قد حصل في بعض ألفاظها، ولكن لم يبيّن شيئاً عن حجم هذا البعض، ولاعن موضوعاته، فقال: «والصواب الذي عليه الجمهور أنّه بُدّل بعض ألفاظها»[٣].

ولكنّه في موضع آخر يومئ إلى أنّ هذا البعض قليل، وأنّ التحريف الكثير كان في معاني الألفاظ، لافي الألفاظ نفسها، فيقول: «جمهور المسلمين يقولون إنّ بعض ألفاظها بدّل، كما قد بدّل كثير من معانيها»[٤]. وهذا خلاف ما أثبته أهل التحقيق في هذا الباب من أنّ هذه الأناجيل والتوراة لم تحتفظ إلّا بالقليل من نصوص الشريعة بألفاظها[٥].

ولكنّه في موضع آخر نصر الرأي القائل بوجود نسخ صحيحة لم يطرأ عليها

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ٣: ١٨١.

(٢) الجواب الصحيح ٣: ١٥٥.

(٣) الجواب الصحيح ٢: ٤.

(٤) الجواب الصحيح ٢: ٣٧٣، الحافظ أحمد بن تيميّة) لأبي الحسن الندوي: ٢٣١ ـ ٢٤٠.

(٥) انظر (الهدى إلى دين المصطفى) و (الرحلة المدرسية) لمحمّد جواد البلاغي.

التحريف ألبتّة، قال: والصحيح هو أنّ في الأرض نسخاً صحيحة بقيت إلى عهد النبيّ ﷺ، ونسخاً كثيرة محرّفة[١].

وحين لا تجد عنده ذكراً للإنجيل الخامس، إنجيل برنابا، فهو معذور في ذلك، فهذا الإنجيل أضاعه النصارى فخفي على العرب.

فمنذ سنة ٤٩٢ للميلاد أي قبل المبعث النبويّ الشريف بنحو مئة وعشرين عاماً ـ صدر أمر البابا جلاسيوس الأوّل بحظر هذا الكتاب ومصادرته، لما حمله من حقائق فاضحة لهذه الأناجيل المتداولة. وبقي مختفياً حتّى القرن الثامن عشر، حيث ظهرت له نسخة إيطالية لأوّل مرّة سنة ١٧٠٩م، ولم يعرف العرب ما فيه حتّى نقله إلى العربية الدكتور خليل سعادة سنة ١٩٠٨[٢].

وممّا احتفظ به هذا الإنجيل البشارة بنبيّنا الأكرم ﷺ كما وردت في القرآن الكريم، والأحكام والتعاليم السماوية التي نزل بها الإنجيل، وفيه ردٌّ على ما طرأ عليها من تحريف، ففي مقدّمته يقول: إنّ الله العظيم افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح برحمةٍ عظيمة للتعليم والآيات التي اتّخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى! مبشّرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً، ومجوّزين كلّ لحم نجس، الذي ضلّ في عدادهم أيضاً بولس، الذي لا أتكلّم عنه إلّا مع الأسى![٣].

وفي آخره يقول: إنّ فريقاً من الأشرار المدّعين أنّهم تلاميذ بشّروا بأنّ المسيح مات ولم يقم، وآخرين بشّروا بأنّه مات بالحقيقة ثمّ قام، وآخرين بشّروا

---

(١) الفرقان بين الحقّ والباطل: ٧٣.

(٢) الرحلة المدرسية: ٣٤٧.

(٣) الرحلة المدرسية: ٣٤٩، نظرات في إنجيل برنابا: ٥٢.

ولا يزالون يبشّرون بأنّ يسوع هو ابن الله![1].

وينقل قول المسيح ﷺ: «إنّي أشهد أمام السماء، وأُشهد كلّ ساكن على الأرض أنّي بريء من كلّ ما قال الناس عنّي من أنّي أعظمُ من بَشَر، لأنّي بشرٌ مولودٌ من امرأة، وعرضة لحكم الله، أعيشُ كسائر البشر، عُرضةً للشقاء العامّ»[2].

وأمّا عن نبيّنا الأعظم ﷺ فإنّ برنابا يذكره باسمه الصريح وباسم مَسِيّا، ورسول الله في عدّة مواضع، منها:

قول المسيح ﷺ: «إنّ الآيات التي تظهر على يديَّ تُظهر أنّي أتكلّم بما يريدُ الله، ولستُ أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه، لأنّي لستُ أهلاً لأن أحلّ رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذي يسمّونه مَسِيّاً الذي خُلق قبلي وسيأتي بعدي بكلام الحقّ، ولا يكون لدينه نهاية»[3].

وقوله ﷺ: «وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون: يا محمّد، أين وعدك لنا أنّ من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد؟ فيعود حينئذٍ ملاكُ الله إلى الجنّة، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقصّ عليه ما سمع. فحينئذٍ يكلّم الرسولُ الله ويقول: ربّي وإلهي اذكر وعدك لي ـ أنا عبدك ـ بأن لا يمكث الّذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد. فَيُجيب الله: اُطلب ما تُريد يا خليلي لأنّي أهبك كلّ ما تطلب»[4].

فلو كان هذا الإنجيل معروفاً عند المسلمين لكان مقدّماً عندهم في احتجاجهم

---

(١) الرحلة المدرسية: ٣٤٩.

(٢) نظرات في إنجيل برنابا: ٥٢، عن آخر الفصل الثالث والتسعين من إنجيل برنابا.

(٣) نظرات في إنجيل برنابا: ٥٥.

(٤) نظرات في إنجيل برنابا: ٨٨.

على النصارى بلا ريب، ولكان معتمداً أيضاً في الحديث عن وحدة الأديان وتقارب الشرائع السماوية.

ولو كان هذا الإنجيل حيّاً بين النصارى لتعارفت أُمم الأرض وتقاربت أكثر، ولاختفى كثير من الشرّ الدائر بينها.